

الأخلاق بين الخطابة والنقد الأدبي

ودور أرسطو وعبد الرحمن بدوي فيها

د.مدحت الجيار

Ob e i k a n d i . c o m

(١)

اجتهد الدكتور عبد الرحمن بدوى فى التراث الفلسفى العالمى بعامته، واليونانى منه بخاصة. وأعطى لأرسطو حظاً كبيراً من اهتمامه الفلسفى بنشر فن الشعر وفن الخطابة بتحقيق خاص به^(١). يضاف لجهود الباحثين الآخرين فى هذين الكتابين المهمين، اللذين أثرا النقد الأدبى بتأثيراتهما المباشرة حتى عصر النهضة العربية والأوروبية، وتأثيراتهما غير المباشرة فيما جاء بعد عصر النهضة.

ولقد تركزت العيون على كتاب الشعر الأرسطى، لأنه ألصق بتراثنا الشعرى والخطابى. ولهذا قلب كتاب الشعر الأرسطى النقد العربى، وحوله من نقد نوقى، لغوى، إلى نقد بلاغى منظم، يفرق بين الباب والفصل، والوحدة والفصلة، عند تأليف المؤلفات النقدية. بل ساهم بشجرة فورفورىوس فى تنظيم وحدات كل باب وفصل وفصلة، وأعطى خبرة حضارة كاملة (مصرية - شرقية - يونانية) إلى المؤلف النقدى، ومعلومات مهمة عن الأغراض والأساليب وطرق المحاكاة وكيفياتها وأدواتها. وبسبب هذا التركيز فقد كتاب الخطابة بريقه وتأثيره المرجو منه، فى حين أنه من الموروثات المؤثرة فى ثقافتنا ومؤلفاتنا العربية، ومن الواضح - أيضاً - أنه أثر فى نقد الشعر تأثيراً مباشراً، ويظهر هذا فى كلام نقادنا العرب القدامى خلال القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة، خاصة وأن كتاب الخطابة لا يفهم بدون كتابى الشعر والمنطق الأرسطيين. وقد قدمهما عبد الرحمن بدوى محققين، ومعلقاً عليهما.

ويعنى هذا، أن التأثير الخاص بكتاب (الخطابة) انصب - فى الغالب - على مضمون النصوص وأفكارها، مع العلم بأن ما وصل إلينا منه جزء لا يذكر بحقيقة هذا الكتاب الذى قيل عنه إنه يحوى عشرين جزءاً. ومع هذا التقصير قدم نشره المتاح من «الخطابة» خدمة جليلة لمراجعة دوره فى النقد الأدبى بخاصة.

وينقسم كتاب الخطابة (طبعة ١٩٥٩ - مكتبة النهضة تحقيق عبد الرحمن بدوى) إلى ثلاث مقالات: تتحدث الأولى عن مقولات فلسفية أخلاقية عديدة كانت ذات تأثير على الفكر الأخلاقى العربى منها: الخير والشر والنافع والضار، الفضيلة والرذيلة،

المدح والذم، الحسن والقبح، العدل والظلم، وهى ثنائيات ضدية سيطرت على الفكر النقدي. كما تحتوى المقالة الثانية على مجموعة من القيم (الأخلاقية) المرتبطة - أيضاً - بسلوك الناس فى واقعهم مثل: الغضب، والهمة، والنقمة، والحسد. وهى مقولات تقع بين طرفى هذه الثنائية الضدية وتصلح كحواضر للفعل. وهذه (المقولات أو القيم الأخلاقية) شكلت مضامين قصائد الشعراء المادحين والهجائين والرائثين، فقد انقسمت أغراض الشعر العربى بين المدح والهجاء، وتوسعت دائرة (المدح) حتى شملت (المدح والثناء والغزل والوصف والحماسة والفخر) بينما وقف الهجاء وحده، يمثل عكس المدح (الذم)، ليعطى الجانب الثانى من الثنائية الضدية السابقة فى الفكر والشعر والنقد والسلوك!

ويلاحظ أيضاً أن بعض النقاد قد وضعوا خصائص وشروطاً للمدح والهجاء (وما يشتملها من أغراض) وفرقوا بين مدح (الحاكم) ومدح (الفقيه والقائد) ومدح من هو أقل منهما، كذلك وضعوا شروطاً (للهجاء أو الذم) بحيث يستطيع الشاعر أن يتكسب دون خوف من هذا الحاكم العربى البصير بالكلام ودرويه، ودون أن يتجاوز فيغضب الحاكم أو المدوح بعامة عليه. وكل صفات المدح (المقولات أو القيم) والذم كذلك، تعود إلى هذه المقولات الأرسطية. الأمر الذى خلق تواشجاً بين المقولات الأرسطية والمقولات النقدية، والمقولات الشعرية عند العرب، وخلق وسطاً نقدياً وإبداعياً وفكرياً تعمل فيه الثقافة والفنون بل العقائد أيضاً.

أما المقالة الثالثة: فتحتوى على كلام دقيق ومهم فى الأسلوب والوسائل وأجزاء الكلام التى تؤدى إلى إيصال هذه المقولات سالفة الذكر. ومن هنا، نستطيع القول إن: كتاب الخطابة قد أضاف أكثر - من كتاب الشعر - على القصيدة العربية، وعلى نقد الشعر العربى وبلاغته، ولهذا يستحق كتاب الخطابة الأرسطى اهتماماً خاصاً، لتأثيره المهم، كما يحتاج عبد الرحمن بدوى هنا إلى تحية لمجوده فى تحقيق كتاب الخطابة بخاصة (رغم وجود تحقيق محمد سليم سالم للخطابة عام ١٩٦٩).

(٢)

ولقد بدأ أرسطو الحديث عن الأخلاق فى كتابه «فن الشعر» إذ أوجب أن تعتمد الأخلاق على «أمور أربعة: فأحدها وأولها: أن تكون حسنة، والمرء يكون ذا أخلاق إذا كانت أقواله وأفعاله تدل على اختياره. ويكون ذا خلق حسن إذا كان اختياره حسناً. وهذا هو الشأن فى كل جنس، فقد يكون للمرأة والعبد خلق حسن على أن المرأة ليست شريفة جداً، والعبد ليس بشريف على الإطلاق. والأمر الثانى: هو أن تكون مناسبة، فالرجولة خلق يوجد للرجال، ولكن المرأة لا يناسبها أن تكون ذات رجولة. والأمر الثالث: هو أن تكون الأخلاق شبيهة بالواقع. وهذا غير كونها حسنة أو مناسبة كما قيل. والأمر الرابع: هو أن يكون الخلق سويًا...»^(٢).

ويعنى هذا أن (الأخلاق) المشروطة لدى أرسطو فى الشعر (والمسرح) هى أن تكون حسنة، ومناسبة، وشبيهة بالواقع، وسوية. وهى أخلاق (الممدوح) فى الشعر، وأخلاق الأبطال فى التراجيديا. وهذا ما يجعلها نقيضة (الهجاء - الذم) فى الشعر، وفى الكوميديا. أما ما يقوله عن أخلاق المرأة والعبد، فهو قول يرتبط بمكانة المرأة والعبد كليهما فى المجتمع العبودى الأثينى، وهو ما يرتبط أيضاً بمكانتهما فى العصر الجاهلى عند العرب. وهو أمر ثابت فى كل المجتمعات العبودية والإقطاعية بعامة.

ولهذا، يدخل بعض التعديل عليها وفق خصائص الفكر الإسلامى الجديدة التى تنادى بالعدالة والمساواة والحرية بين البشر جميعاً. كذلك دخول تعديل مهم يرتبط بالتراتب الأخلاقى فى الإسلام «إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وكذلك وضع الدرجات المترتبة التى يقف فى أولها النبى «وإنك لعلى خلق عظيم». والصحابة والتابعون ثم الأتقياء بدون تفريق بين رجل وامرأة أو حر وعبد، من الناحية الدينية. وإن كان الواقع يضع المرأة فى الإسلام كنصف رجل (الميراث) ويضع العبد فى أقل مكانة كذلك الأمة (ملك اليمين)، بصرف النظر عن الاستثناءات الحادثة فى تاريخنا العربى والإسلامى التى كان للمرأة فيها شأن يفوق شأن الرجال.

وهو أمر يتجسد لنا فى التراث الشعبى فى صورة «شهر زاد» أو «الأميرة ذات الهمة»، بل ظهرت النساء من وراء حجاب فى عصر الحكاية والسيرة الشعبية لتحكم من وراء حجاب، وهذا ما جعل القيم الأخلاقية، وتراتبها، مختلفة فى التراث الشعبى بخاصة.

والأمر الذى جعل هذه التعديلات، تغير من خصائص الأخلاق عند أرسطو عندما دخلت فى الاستعمالات العربية الإسلامية. إذ كانت مقولة (مكارم الأخلاق) مقولة جامعة لكل المقولات الإيجابية الأرسطية. وهى مقولة كانت تسود الذوق النقدى العربى فى الجاهلية. (فى المدح وما يشبهه). ثم جرت على لسان النبى ﷺ وعلى لسان المسلمين من بعده، واعتبرت خصيصة أخلاقية عامة تجمع (حسن الخلق) الذى ارتبط بمقولة الصدق الأخلاقى والفنى فى النصوص الأدبية والنقدية.

وحسن الخلق فى السلوك كان ترجمة لمكارم الأخلاق من الناحية النظرية. إذ عودت حياة العربى الحربى (الشجاعة) أمام أهوال الطبيعة، وأمام فزع الحرب والموت. كما عودته (العفة) عند المغنم - عند توزيع الغنائم - وعند المحافظة على شرف القبيلة وعرضها. وعودته (التعقل) أمام الخطر حتى يتقلب عليه بحيل إنسانية عقلية تمكنه من حماية نفسه ومن حماية القبيلة فى آن. ولهذا كانت (العدالة) على قمة الأخلاق العربية، تعنى العدالة القصاص من ناحية، ونصرة المظلوم والضعيف، والانتقام من العدو، والغضب لانتهاك الحريات من ناحية أخرى.

وتدخل صفات: الكرم، والقوة، والإرادة، والجرأة، والإقدام، والنجدة، وشدة البأس، والسماحة، كلها تحت الأمور الأربعة التى حصرها أرسطو عن خصائص أخلاق الممدوح، والتى جمعت لدى العربى فى صفات تفضيلية أكثر من الأربعة السابقة، لأن أمور حياتهم فى الحرب والسلم، كانت توجب فى الحر والعبد هذه الصفات النفسية والعقلية. بعد التعديلات التى أضافها الإسلام بحكم تغير رؤية العالم وتطور وسائل تصويرها، ومصداقيتها عند الممدوح.

ونجد فى الوقت نفسه عكس هذه الصفات والخصائص عند (الذم والهزاء) وما

يقترّب منها من الأغراض الشعرية.

ونجد المقولات الفلسفية الموازية لهذا كله، على لسان أرسطو، في فن الخطابة. إذ أجملها أرسطو في: الخير، والنفع، والفضيلة، والحسن، والعدل (وهي سمات عامة للمدوح). ونجد مقولاتها المضادة في: الشر، والضرر، والرذيلة، والغضب (السلب وليس من أجل الحق) والنقمة، والحسد (الذم) وهي مقولات فلسفية عامة نستطيع أن نصنف أي صفة للمدح أو للذم في الشعر العربي تحتها. كذلك نضيف تحتها ما يفترضه النقاد من شروط للمدح والذم، يفرضونها على الواقع النقدي والشعري والثقافي بعامة.

وما ينطبق على (الشعر) ينطبق على (النثر والخطابة) لأن الكلام في الأخلاق - هنا - ينطبق على مضامين النصوص وليس على أشكالها وصياغتها وأساليبها، وهو أمر جمعه أرسطو في «فن الخطابة» بقوله: «والغاية من القول: إنما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعين، والسامعون لا محالة إما مناظر، وإما حاكم، وإما المقصود إقناعه»^(٣) وهي مكونات الظاهرة الأوروبية (المرسل والمستقبل والرسالة والوسط الجامع بينها) وهذا أمر يرتبط بالإقناع (في الشعر والنثر والخطابة) وهو ما جعل تعريف البلاغة يقوم على مقولة مراعاة الكلام لمقتضى الحال (مع فصاحة الكلام والمفردة)، ويكشف هذا الربط أن البلاغة ترتضى مراعاة مقتضى الحال والفصاحة، بصرف النظر عن كون النص شعراً أم نثراً أم خطبة. لأن المضمون (المفصول نقدياً عن الشكل) لن يختلف باختلاف الصيغ الشكلية للنص الأدبي بعامة. فالمقولات الأخلاقية هي أساس هذا جميعاً، أما الصيغ والأساليب فتدخل في باب التراكيب (علم المعاني - الأول) وما يرتبط به من (علم البيان - أي المجاز) بأنواعه وهو المعاني (الثواني) في التركيب الكلامي، الشعري أو النثري أو الخطابي.

كما يعني أن البليغ منوط به إقناع المدوح بهذه الصفات والمقولات، وإقناع المتلقى بها في الوقت نفسه (في المدح) والذم) وما يتفرع عنهما من أغراض الشعر والنثر والخطابة. وهنا تقوم الأخلاق الأرسطية (في الخطابة بخاصة) بدور جوهرى

فى ثقافتنا. وبالتالي (فالإقناع) هنا يرتبط بوسائل عقلية ولغوية يتفق عليها القائل والسامع (موضوع المدح أو الذم). وهو ما يجمعه قول الشاعر «صدق» الشاعر فى قوله.. والصدق هنا ليس صدقاً نفسياً بل هو صدق عقلى أيضاً، توجد (ما صدقاته) فى الواقع. ومن هنا يتفق على مقولات هذا الصدق، سلوك المتكلم وأفكاره فى الواقع، يجر بها جميع الأطراف فى الحياة ويتمنون أن توجد فيهم قبل المدوح، أو يتمنون البعد عنها وألا توجد فيهم بعيداً عن المذموم أو المدوح.

ويفسر هذا مقولات «صدقت» و«أحسنت» التى تنطلق عند سماع هذا الكلام وهذه المقولات المقنعة، بعيداً عن حسن الصياغة والأسلوب التى تسبب متعة أخرى بجوار متعة العقل فى مقولاته الرئيسية التى أشرنا إليها من قبل. وحين نخص الشعر بهذا الكلام نرى سبباً لتعريف الشعر لدى القدامى بأنه «كلام موزون مقفى، يدل على معنى»، إذ يشمل المعنى كل ما أشرنا إليه من مقولات المدح والذم الأرسطية التى تحولت لقوالب فكرية عامة - فيما بعد - فى الثقافة العربية.

ولقد أجمل ابن طباطبا العلوى: كل ما يرتبط بالأخلاق ومقولاتها الفلسفية عند أرسطو، وكل ما يرتبط بأدوات الشعر ومفهومه، وغلبة اهتمامهم بالمعنى، أو الدلالة، وتفضيلها على أنها الأساس الذى تتعقد به النصوص فى كتابه عيار الشعر. إذ يبحث لها الشاعر (وكذلك الكاتب والخطيب) عن اللفظ والقالب، فيقول «وجماع هذه الأدوات (كمال العقل) الذى به تتميز (الأضداد) ولزوم (العدل). وإيثار (الحسن) واجتناب (القبیح)، ووضع الأشياء مواضعها.»^(٤)

وهى نفسها مقولات أرسطو فى الاقتباسين السابقين اللذين أوردناهما من كتابيه، فن الشعر وفن الخطابة.

(٣)

ولو أخذنا مقولة أرسطو عن المدح: «فإن المدح منطلق يصف عظم الفضيلة... ولذلك قد يمدح الفاعل إذا فعل. فأما الأعمال فهى دلائل على الفعال.. فأما السعادة والجدية فهما شىء واحد. ولكنها وهذه الفضائل الأخر ليستا شيئاً واحداً بل كما أن

صلاح الحال محيط بالفضيلة، كذلك الجدية أيضاً تحيط بهذه...»^(٥).

لوجدنا صداها في النقد العربي والشعر العربي بعامة. فنجدها عند قدامة بن جعفر في قوله «لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق/ في ذلك إنما هي: العقل، والشجاعة والعدل والعفة. كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع خصال مصيباً. والمداح بغيرها مخطئاً...»^(٦)

الأمر الذي يعيد صياغة ما بدأنا به هذا البحث، أعنى أن صدى مقولات أرسطو لم يترك مكاناً في ثقافتنا إلا وأثر فيه بصرف النظر عن المجال المنقول منه والمنقول إليه. فتأثير المقولات الأخلاقية وجد مناخاً عاماً مناسباً لدى العرب والمسلمين بعامة، فإثر أرسطو كما لم يؤثر في ثقافة عالمية أخرى.

ويتضح هذا من مقولة قدامة السابقة التي جمعت الفضائل عند الناس، وهي مقولة تترجم مقولة أرسطو في الخطابة: المدح منطبق يصف عظم الفضيلة. لأن الأفعال التي يصفها قدامة بالشجاعة والعدل والعفة في الاقتباس السابق، والتي يصفها ابن طاطبا في الاقتباس الأسبق بكمال العقل، هي ترجمة لمقولات أرسطو في الفضيلة. وعكسها - لاشك - يصلح للذم حتى تعمل الثنائية الضدية بين مقولات الأخلاق، وتراتب القيم، وهنا لابد من اختبار هذه المقولة في كتب النقد والبلاغة والفلسفة العربية الإسلامية لنخرج بالصورة البحثية كاملة، وهذا ما يحتاج لعمر طويل يشترك فيه مجموعة من الباحثين. لننصف مجهودات عبد الرحمن بدوي في تقديم الفلسفة اليونانية بعامة وفلسفة أرسطو بخاصة. ولننصف كتاب الخطابة، على الأخص، إذ ينكر تأثيره أو يبهت بسبب عنوانه (الخطابة) على الرغم من تأثيره الواضح في الشعر والنثر والنقد والفكر العربي.

إن ما أقدمه - الآن - اختبار أولى يحتاج مني ومن الآخرين إلى متابعة. فقد قدمت في هذه الورقات القليلة نماذج قليلة لإثبات الفكرة فقط، وللتأكد من صحة الدعوى المعنون بها البحث. وأرجو أن أستكمل هذا الأمر - فيما بعد - ليخرج بحثاً

كاملاً مستقلاً عن تأثير كتاب الخطابة فى المؤلفات العربية الشعرية والنثرية والنقدية والفلسفية. كما أرجو أن يلفت هذا البحث نظر المتفلسفة من أبناء العربية إلى أهمية هذا الكتاب، وأهمية ما فعله عبد الرحمن بدوى فيه.

كذلك أدعو للنظر فى مؤلفات أرسطو من جديد بعد الدعاوى الجديدة التى تنشرها المؤلفات الأمريكية الآن، عن كون فلسفة أرسطو (وأفلاطون) فلسفة مصرية قديمة. ولاضير فى هذا، فالفكر الإنسانى ملك للبشرية كلها مهما يكن الشعب الذى أخرجه، ولكنه من قبيل التذكير بضرورة مراجعة تراثنا المصرى والعربى فى ضوء المتغيرات الآتية فى العالم كله، وكما يقول عبد الرحمن بدوى فى مقدمة كتابه «أرسطو عند العرب»: «لكل فكر ممتاز حياة حافلة فى الضمير الواعى المتطور للإنسانية على تباين عصورها وأجناسها. وبقدر تعدد صور هذه الحياة وعمق تكوينها وتلوينها يكون خصبها وعظمتها صاحبها ولاجناح عليها أن تتجاوزها ضروب من التعديل والتبديل وفقاً لعوامل يتصل بعضها بالأسانيد التاريخية، وبعضها الآخر - وهو الأهم - بالشعوب والأفراد الذين يتمثلون تلك الحياة، وذلك الفكر...»^(٧).

ولاشك فى أن مقولة عبد الرحمن بدوى هذه، مشفوعة بأعماله الفلسفية وتحقيق نصوص أرسطو بخاصة تدعونا لمراجعة الدور الرائد لعبد الرحمن بدوى فى ثقافتنا وفكرنا العربى الحديث.

الهوامش

- (١) أرسطو «فن الشعر» ترجمة وتحقيق، عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة - بيروت، بدون تاريخ - الخطابة، ترجمة وتحقيق وتعليق، عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ - عبد الرحمن بدوي، أرسطو عند العرب، دراسة ونصوص، ط٢ وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٨.
- (٢) أرسطو، فن الشعر، ص٨٨.
- (٣) أرسطو، فن الخطابة، ص ٢٨.
- (٤) ابن طباطبا، عيار الشعر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٧.
- (٥) أرسطو، الخطابة، ص٤٣.
- (٦) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي ط٢، القاهرة، ١٩٧٩. ص٦٥.
- ص٦٦.
- (٧) عبد الرحمن بدوي، أرسطو عند العرب، ص٦.